

كاتب جزائري يعرف الكبار ويكشف عوالمهم السرية

عبد العزيز بوباكير

أتمنى ألا يتحول الحراك الشعبي إلى عراك

أبوبكر زمال
كاتب جزائري

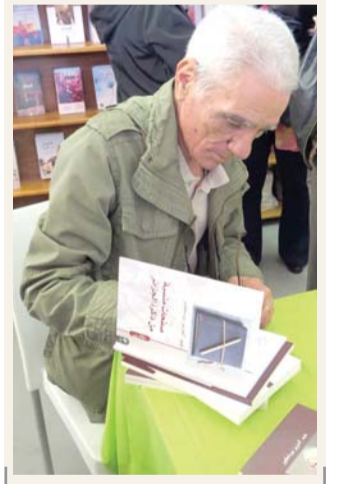
عند الساعة الباكورة ينهض الكاتب عبدالعزيز بوباكير وينصت. لقد كان في قلب الحراك. بجسد نحيل منهك بفعل الزمن والمرض والقلق. يتعمق بوباكير في مسارات حياته الثرية ليراها ساطعة ولامعة، يجترح لها تفاصيل صغيرة تغوص في زمن جزائري أثري يعبر دمه المتفرق بين ربوع قبائل الكتابة والنص والترجمة.

ولد بوباكير يوم في العام 1957 وترعرع ودرس في جيجل إحدى مدن السواحل الجزائرية، وغادرها إلى الجزائر حيث تلقى تعليمه العالي في جامعات الجزائر، ثم طار إلى بيطرسبورغ بروسيا أين عمق معارفه واحتك مباشرة بمختلف الأفكار والفلسفات والآداب الروسية وأصبح من أهم أعلام هذه الثقافة واللغة الروسييتين، ثم عاد إلى الجزائر وعمل رئيساً لدائرة السمععي البصري بمعهد علوم الإعلام والاتصال ومديراً لمعهد التعليم المكتشف للغات بجامعة الجزائر، وقد أدخل كما يقول عندما استلم مهامه فيها على "مناهج التعليم: اللغات التركية والروسية والإيطالية والعبرية".

ألغاز وخفايا

كانت لبوباكير جولة مهمة في الصحافة أين رأس تحرير "الخبر الأسبوعي"، ومجلة "معالم" التابعة للجلس الأعلى للغة العربية.

بوباكير يجري الإسلام في دمه بخفاء. علماني وما هو بالعلماني بل تبركت العلمانية به، يساري وما هو بيساري بل تشبه اليسار به. حدثي وما هو بحدثي بل تقمصته الحدثية



وهو اليوم متفرغ للكتابة والبحث والترجمة، وقد نشر العديد من الكتب تراوحت بين الترجمة والتأليف والتحقيق منها بوجه الخصوص "الأدب الجزائري في مرآة استشرافية"، "الجزائر في عيون الأخرى"، و"الجزائر في الاستشراف الروسي"، و"مذكرات الشاذلي بن جديد". كما ترجم عن الروسية "الانتليجنسيا في بلدان المغرب"، و"أفكار ونزعات فلاديمير ماكسيمكو"، و"جيش الثورة الجزائرية يوري كوندوراتيف" و"النخبة الجزائرية في مطلع القرن العشرين" وغيرها.

ولعل أهم كتاب صدر له حالياً كتاب "رجل القدر"، وهو كتاب يرصد أهم المحطات في حياة الرئيس المعزول عبدالعزيز بوتفليقة، وقد أثار هذا الكتاب ضجة قبل نشره حين هدد وزير الدفاع الأسبق خالد نزار الذي صدرت بحقه مؤخرا مذكرة توقيف، بالجوء إلى القضاء لوقف نشره، والسبب وورد فقره في الكتاب يقول فيها الرئيس الراحل



● الحراك الشعبي الجزائري يروق لبوباكير ويروق هو للحراك، فهو كما يقول عنه "ميلاد أمة"، و"ثورة ناعمة، ناعمة"، وقد "أسقط القابا في غير موضعها (فخامة، سيادة، معالي...)، وعوضها بخاوة خاوة".

أو تلك التي تعاديهما، ويتوحش على الذي يحرف، ويتعثر، ويريد أن يتطفل، وينفرد ويسرق الوهج والنور والضوء من الأيدي والحناجر المقاتلة دون سلاح ونار وحديد، يُضْمَنها بتلك الشذرات الفيسبوكية ولقاءاته المتعددة وبثروته وثرائه وإثرائه حتى تبقى مسالك الحراك تهفو وتشدو بريح طيبة لا تعكر صفوها ريح نكرة قد تفسد اللحظة وتدخلها في الوهم السعيد والفوضى الأبدية.

يقول "تعبت من السير في الحراك" وهو المعتل والنحيف والخائف ولكن عقله، وروحه لا تمل ولا تكل من الرض المشي والسير والجذب في مقامات الحضرة والنفس الطويل لهؤلاء الذين لم يفقدوا رغبة الرض والمشى والسير حتى النصر والفوز. أمانيتهم من أمنياتي وأحلامهم من أحلامي. يقول عبدالعزيز، ثم يتلمس ركضه ومشيه وسيره بالقوة والفعل والكلمة.

مواجهة بين كاتب وجزرال

لم يكن الكاتب بوباكير ينتظر ليرى نفسه يوماً ما في مواجهة جنرال عتيد وقاهر لم يعد لديه ما يفعله في نهاية مشواره سوى التحرش بهذا الأخير.. حيث وضع نفسه في فوهة بركان يغلي ويثور ويستشيط اسمه الإنسان بوباكير. فما الذي أودى و"خجبت في رأس" الجنرال المتقاعد لبشير سلاح غروره وعججهيته أمام غرور وترجسية كاتب واتي كاتب؟

سيتوه الجنرال في متاهة عبدالعزيز حيث لا خروج سالماً من حروب الكلمة الحرة والحرف الصارخ والعقل المتنور، وخلاف ما يتوقعه الجنرال المدوخ من كتاب بسيط هز عرشه المخملي الوفير الحمي بسلاح النفوذ والتهديد والوعد والوعيد، يقول بوباكير "الجنرال لم يقرأ بعد حرفاً واحداً منه حتى لا أقول جزءاً، وبالنتالي يمكن وصف ما يقوم به بأنه فعل غبي. اعتقد أن الهاجس الذي يقض مضجع الجنرال خالد نزار هو خوفه الكبير من احتواء الكتاب على شهادات أو تصريحات مسؤولين تنتقده وتنتقد أداءه عندما كان يسيطر على مفاصل الدولة ويؤثر في القرار السياسي. فنزار يعتقد أنه هو من أنقذ الجمهورية، ويرفض تماماً أي نقد يخص دوره في توقيف المسار الانتخابي سنة 1992، أو ما قام به خلال مظاهرات أكتوبر 1988. اعتقد أن الجزائر تعيش عصراً آخر غير الذي بقي راسخاً في ذاكرة الجنرال نزار، لقد تلقيت عدة تهديدات منه في هذا الخصوص، والآن قرر أن ينفذ تهديداته بشكل مباشر".

سيصير بوباكير مقاتلاً وقناصاً وسفاحاً مولعاً بالتحدي والصيد، فوراء الثقة والإيمان وجيوب فاضية وفضاضة، ومكتناً على جدار صلب وصاحب أكتاف عريضة ونفوذ شفاف وسط حراك لا يعرف عن الجنرال شيئاً سوى أنه لم يعد له من يرأسه، وعنده في الاحتياط جنود مجندة لا قبل للجنرال بهم.

عميقة بدقائق سيرة الإمبراطور الفرنسي وخبايا نفسيته، وأنه "معجب ومنبهر بشخصيته (نابليون) ومصيره الاستثنائي"، وهناك "تشابه يكاد يكون مذهشاً بين نابليون وبوتفليقة"، فكلهما "منحدر من أصول متواضعة، وتوافرت لهما ظروف مواتية دفعتهما إلى أعلى مراتب الشهرة والنجاح"، وكلاهما "مفعم بالاعتداد بالنفس وسعة الخيال وطاقة النشاط الفياض والطموح العارم".

ومثلما عاد نابليون من مصر إلى بلده فرنسا في ثوب المنقذ، رجع بوتفليقة إلى الجزائر، بعدما قطع الصحراء كما يقال لمدة دامت عشرين عاماً، عاد ليخلص الجزائر من الدمار والقتل والإرهاب، وقد أسن بوتفليقة دائماً بأنه "رجل قدر بالنسبة للجزائر، مثلما كان يقول نابليون عن نفسه".

واكب بوباكير وأحاط بهذه الثغرات والقصص والروايات، بعضها ميثوث بلغات أخرى في الرسائل والمخطوطات والرحلات والمذكرات والمجاميع والموسوعات، صاغ بعضها وطرحها مباشرة من الأفواه والعيون والكلام والوجود، وبقدراً ما كانوا أثناءه في الحكى والخيال، في الفنتازيا والواقع، في التاريخ والأسطورة والخرافة، كان هو مؤتمناً عليهم وأميناً لديهم بحفظ أسرارهم ودرهم ومحبتهم له.

في داخل الحراك

يروق الحراك لبوباكير ويروق هو للحراك، فهو كما يقول عنه "ميلاد أمة"، و"ثورة ناعمة، ناعمة"، وقد "أسقط القابا في غير موضعها (فخامة، سيادة، معالي...)، وعوضها بخاوة خاوة"، وأثبت الحراك "أن العلم ليس منديلاً يخفى في جيب"، وتمنى إن شاء الله أن يبقى "حراك من دون عراك".

هكذا هو الحراك في بعض أفكاره، فجاهه مثلما فاجأ أكثر الغاضبين لأنه كشف ما آل إليه الوطن وما كانت العصابة تقوم به.. يسير في الشوارع مع الجماهير يرافقهم في لحظة حزية غابت وكادت أن تمحي في المجاهيل والنكران واليباس. ينزلق في أتون نارها، ويذيع رؤاه حول ما يحدث في لقطات يعرضها. يختصرها في جمل بديعة تضرب كالسهم في السهم، وعطفا على المصير والمستقبل، يضع قلبه وعقله في الحروف، والأسطر، وفي المعاني التي تقاربها

«رجل القدر» أهم كتاب لبوباكير في هذه المرحلة، يرصد محطات في حياة الرئيس المعزول بوتفليقة، وقد أثار ضجة قبل صدوره حين هدد وزير الدفاع الأسبق خالد نزار بالجوء إلى القضاء لوقف نشره



تلك العيون بداهة ومكر وحيلة وحكمة، وأخرج من الباب المشرع الواسع للنشر مقالات وكتبا متفرقة في السير والعبير والنوادر، فمن الأمير عبدالقادر إلى أحمد شوقي إلى حيدر حيدر إلى أدباء ومتقفي الروس إلى ماركس إلى بن جديد إلى بوتفليقة. ظل يسردهم ويكشف ما بهم من قوة وضعف وفرح وسعادة وحزن وما كان يشغل بالهم وقلوبهم. وكيف كانوا من قبل ومن بعد: كيف تربوا ولعبوا الكرة والدومينو والورق والتنس والغميضة ولهو الأطفال؟ كيف نهضوا؟ وكيف سقطوا؟ ما فرحهم وما يحزنهم؟ ماذا كان يعذبهم ويسليهم؟ بطولاتهم وصراعاتهم في معارك العيش والسوق والسماء والأرض. معارك الوهم والبقاء. كيف هي حمياتهم والعائلة؟ هل يضحكون ويبتسمون؟ يكون أم على قلوبهم أقال من حديد وصلب؟

مع عرفنا أن ماركس جاء إلى الجزائر "حزاق"، ونكتشف أن ماركس كان "يكتب رسائله، إلى أصدقائه، من الجزائر، ويوقعها باسم موريسكي"، يوماً، متعباً ومنظوماً، وذلك عملاً بـ"نصيحة الأطباء، وصديقه فريدريك إنجلز، على أن مناخ الجزائر هو الأنسب من أجل تحسن صحته المتدهورة"، وعمد بالجزائر إلى "خلق لحيته وشعره اللذين اشتهرا بهما"، وكتب ذلك في رسالة لصديقه إنجلز قال فيها "يوم جمعة، 28 أبريل 1882، وبسبب الشمس تخلصت من لحيتي الشبيهة بلحية نبي ومن شعري، ولما كانت بناتي تفضلنني بها، فقد أخذت صوراً قبل أن أضحي بشعري على مذبح حلاق جزائري".

وعن بن جديد يروي بوباكير أنه كان بسيطاً رؤوفاً بالأهل والعباد، ولم يكن هذا الأخير يهوى العمل الفلاحي في أراضي والديه، وقضى طفولته وجزءاً كبيراً من مراهقته في مدن عنابة ودارال وموندوفي، وفقد مع مرور الوقت ارتباطه بالريف، وأن الرئاسة "فرضت عليه فرضاً"، ينقل عنه "أنا عسكري وكفى، أطلق التعليمات ولم أسع إلى الرئاسة".

بوتفليقة، كان حسب وصف بوباكير، قديراً تماشى مع نابليون، وكان صاحب "معرفة



● بوتفليقة، حسبما يصفه بوباكير، كان قديراً تماشى مع نابليون، وكان صاحب "معرفة عميقة بدقائق سيرة الإمبراطور الفرنسي وخبايا نفسيته".

الشاذلي بن جديد إنه ندم على تعيين نزار وزيراً للدفاع في تسعينات القرن الماضي.

في حياته أزمته معقدة ومتحلبة من الثبات والركون للجاهن، زمنه زمن خاص ورمزي، مولع بالسفر في الكتابة التي سبب الغازها وخفاياها، تمنحه الطاقة والقدرة والقوة على البقاء والوجود والحضور الممكن على أرض واسعة وتتراص بين أقلامه ودفاتره، وعندما يفرج عن مكانها يلجا إلى لغات أخرى لينقلها بسلاسة إلى القارئ، يعرف شوارعها وأزقتها ودروبها الصعبة، ويمتحن جسدها ويطوعه بين يديه ليس بالمبضع كما يفعل غيره بل بكثر الريش عليها كي لا تجرح أو تصاب بالترفيف.

من يعرفه يقول إنه حاد وجاد ولطيف بطبعه تكاد لا تسمع همسه أو تحس بلقنته، وحين تلمحه وهو يمر عليك، وإن لم يكن سمعك وبصرك قوين، فلن يكون بمقدورك الإنصات إلى وقع أقدامه وهي تدعس التربة والحصى والغبار، ولن ترى طيفه وهو يتطاير بجناحيه كانه لا ينتمي فقط إلى هنا بل إلى هناك حيث النور والأناوار.

نذر عقله لبياض الورقة وهي تتلطخ بمداد يطلقه كنهز يتدفق بجواهر المعرفة والثقافة والعلم والدين والتاريخ والجغرافيا والحوادث والوقائع التي تناثرت في ذاكرة الأمم والشعوب، يقدمها لك صافية وواضحة ومفتولة ومصقولة بمهارة من أخرج معانيها ودلالاتها وعناوينها ومقاصدها ومراميتها ومشتقاتها وأصولها من الصعب والمحل، ولتكون كالأية أقرب لديك وفي مطبخ عقلك يضيف عليها نكهة سلسلة من التحليل والاختصار والتدقيق والوصل والفصل. فبين يديه يُفرق كل أمر مستعص ومعلومة وخبر وراي وموقف، يتقصى ويستقصيه من متهات الماضي كي تدق باب الحاضر ويمر إلى ساحة المستقبل.

مصاحبة التاريخ

عندما نقول إنه مسلم فما هو بمسلم بل يجري الإسلام في دمه بخفاء. علماني وما هو بالعلماني بل تبركت العلمانية به.. وطني وما هو بوطني بل هو وطن وحده، يساري وما هو بيساري بل تشبه اليسار به. حدثي وما هو بحدثي بل تقمصته الحدثية. عابر بين لغات وما هو بعابرها بل مقيم فيها.. سياسي وما عنهما، مزوج بها كلها كأنها واحد متعدد، أو كأنها متعدد في واحد.

جالس بوباكير الشكل واستقر بهيمته العظماء، كتب حياته بجزءة، وفك تعازيم وتعاويز خوفهم وقلقهم من الحقائق والرقائق والدقائق المتخفية بين الطيات والإشارات واللحقات والتعابير والتفاصيل. وضمن مناخ من رقابة متخفية ظلت ترابق وترصد ما يفعله بهؤلاء وما يلقونه إليه من وقائع لفت تاريخهم وعقبت بروائح الحقيقة، مارس لعبة الكر والفر مع

